C. رد فعل الغرب: الحملة الصليبية الفرنجية

إن هزيمة ملاذجرد (١٠٧١) وقد تكون أكبر كارثة في التاريخ البيزنطي . . . إن يوم ملاذجرد المشؤوم يعني، في نظر الغربيين: أن على البيزنطي، الذي بات عاجزاً عن القتال ان يترك مكانه للاتين، إنه تسويغ، بالفعل والحق كذلك للحملة الصليبية الفرنجية: معركة العام ١٠٧١ إستدعت حملة العام ١٠٩٥، (غروسيه).

I. ملاحظات حول الشروع بالحملات الصليبية

١ ـ دور الحملات الصليبية التاريخي

كما أن العرق العربي ـ الفارسي المتعب والعاجز تم الاستعاضة عنه، بدءاً من العام ١٠٥٥، في الإدارة السياسية للإسلام بعرق آسيوي غض متمثل بالأتراك السلاجقة القادمين حديثاً من آسيا الوسطى، كذلك فإن اليونان ـ الرومان البيزنطيين المنهكين والعاجزين عن مواصلة القتال، وبدءاً من العام ١١٠٠، سيخلون مكانهم لعرق غربي جديد هم الفرنجة الأوروبيون الذين سيقفون طوال قرنين تقريباً كمدافعين عن المسيحية وعن أوروبا ضد التوسع الاسلامي والآسيوي المنبعث مجدداً. إن تدخل الصليبيين في النزاع الاسلامي ـ البيزنطي عزز موقتاً وضع بيزنطية المعرض للخطر. وسيؤجل الى العام ١٤٥٣ سقوط القسطنطينية ودمار الامبراطورية البيزنطية نهائياً، وهي التي لولا هذا التدخل الفرنجي، لكانت على الأرجح سقطت منذ العام ١٢٠٠ تحت الهجمات المتكررة التي شنها عليها سادة الإسلام الترك. وإن الأهمية التاريخية التي يرتديها هذا الواقع «تفوق ربما، في مداها أهمية احتلال مدينة أورشليم نفسها» (غروسيه).

٢ ـ المغامرة الصليبية فصل أو وجه جديد من الصراع القديم بين اوروبا وآسيا

إن فكرة «الحملة الصليبية» وهي كلمة لم تظهر إلا العام ١٠٩٥ هي في الواقع سابقة كثيراً لهذا التاريخ. فالحملات التي شنت تحت هذا الاسم في الشرق الأدنى ليست سوى فصل او مرحلة جديدة من التنافس القديم القائم بين أوروبا وآسيا. إن ذلك الصراع القديم والطويل، الذي بدأ مع حرب طروادة (حوالي العام ١١٩٠ ق.م.) توضح بشكل أفضل عندما، وتحت

اشكال الهللينية وإدارة يونان المرحلة الكلاسيكية، بات يعني العداء لآسيا المتمثلة بالفرس الأخمينيديين خلال الحروب المادية الشهيرة بين اليونان والفرس في القرن الخامس ق.م.

ثم، ومع الإسكندر الأكبر (٣٣٦ ـ ٣٢٣) الذي إستأنف الصراع ثأراً لهزائم اليونان، فإن حدود اوروبا المقبلة نقلت من ضفاف إيجه الى ضفاف الهندوس. إن تلك الحدود التي أعادها البارتيون الى خط نهر الفرات (١٢٩ ق.م.) دافع عنها تباعاً وعلى مدار ثمانية قرون (١٢٩ق.م. ـ ٦٤٠ب.م.) يونان أنطاكيا السلوقيون ثم الرومان واليونان ـ البيزنطيون ضد البارتيين وخلفائهم الساسانيين الذين سادوا على إيران وبلاد ما بين النهرين.

وطوال مرحلة السيادة الرومانية والبيزنطية الطويلة في الشرق الأدنى، فإن الصراع بين آسيا وأوروبا الذي استمر بلا انقطاع تحول، بدءاً من عهد الأمبراطور قسطنطين (٣٢٣ ـ ٣٣٧) الذي جعل من المسيحية ديناً رسمياً للأمبراطورية وبخاصة بدءاً من العام ٣٩٥ وهو التاريخ الذي أصبحت فيه الأمبراطورية البيزنطية ملكية تيوقراطية (إلهية) ومسيحية، إلى صراع بين الرومانية المسيحية والايرانية المزدية وإتخذ نتيجة ذلك طابعاً دينياً. وقد رأينا، أنه وفي العام ٦٣٠، قام الأمبراطور هيراقليوس بحملة صليبية حقيقية قبل تسميتها كذلك لإستعادة الأرض المقدسة وانتزاع الصليب الحقيقي من كسرى الثاني الفارسي. وكان الفرس قد إستولوا العام ٦١٤ على الصليب في القدس. ومع توسع عرب الإسلام فإن حدود العالم الشرقي نقلت الى جبال طوروس فيما أرجعت الهللينية والهيمنة الغربية الى ما ورائها. «وإن نجاح الإسلام لا يمكن تفسيره إلا لكون الثورة الإسلامية جاءت وسط يقظة الشرق المستنفر ضد الهللينية وضد ذلك الشكل النهائي الذي اتخذته الهللينية: الأرثوذكسية البيزنطية. فمنذ أكثر من قرنين كانت الأمبراطورية اليونانية الرومانية الشرقية تظهر لآسيا بشكل عقيدة او فعل إيمان. ومع القرآن الكريم رد العالم الإسلامي بالجهاد أو الحرب المقدسة الإسلامية»[1].

إن إنحطاط الخلافة العباسية في بغداد والإنقسامات السياسية والدينية في العالم الإسلامي سمحت للأمبراطورية اليونانية-البيزنطية بإستعادة جزء من سورية الشمالية في القرن العاشر (أنطاكيا واللاذقية) وأيضاً قدس (أورفة) في

1 Grousset, *Les Croisades*, p. 6.

شمال ما بين النهرين. ومن جهة أخرى فإن أرمينيا، التي استفادت من إنهيار القوة العربية ـ الفارسية لاستعادة استقلالها، ضمت الى بيزنطية العام (١٠٤٥).

إن الترك السلاجقة الذين حلوا محل العرب ـ الفرس في الإدارة السياسية لآسيا المسلمة أخذوا على عاتقهم مواصلة الجهاد الإسلامي ضد الخصم التقليدي وهو أمبراطورية بيزنطية المسيحية. وما بين ١٠٧٨ و١٠٨١ أصبحت كل آسيا الصغرى تقريباً محتلة من قبل الترك الذين أسسوا فيها سلطنة الروم (وعاصمتها نيقيا ثم قونيا) لكن تفكك الأمبراطورية التركية ـ السلجوقية وتقسيمها اللذين اعقبا موت السلطان ملك شاه (١٠٩٢) مهدا الطريق أمام الغزو الفرنجي. «وحوالي العام ١٠٩٠ فإن الإسلام التركي، وبعدما طرد البيزنطيين من آسيا طرداً أشبه بالتام، كان يستعد للانتقال إلى أوروبا. لكن بعدها بعشر سنوات لم يتم تحرير القسطنطينية وحسب ولا أعيد نصف آسيا الصغرى الى الهللينية وحسب بل وفوق ذلك أصبحت سورية البحرية وفلسطين مستوطنتين فرنجيتين. إن كارثة ١٤٥٣ (سقوط القسطنطينية) التي كانت على وشك الحصول منذ العام ١٠٩٠ تأخرت ثلاثة قرون ونصف قرن»[2].

وهناك ما يدعو الى الاعتقاد بقوة بأن الحملة الصليبية الأولى لو إصطدمت بأمبراطورية موحدة تركية ـ إسلامية كبرى يحكمها رجل من أمثال ألب إرسلان أو ملك شاه لكانت أغلب الظن قد فشلت نظراً الى الفوضى التي كانت سائدة في صفوف الفرنجة والأخطاء التي سيرتكبونها. لكن الكراهية، التي كانت تفرق أمراء السلاجقة في آسيا الصغرى وسورية، منعتهم من الاتحاد حتى في وجه الأخطار الخارجية. فالسلاجقة الغارقون في نزاعات أخوية فيما بينهم وصراعات مستمرة مع فاطميي مصر سهلوا على الفرنجة هزمهم كلاً على حدة. فأخضع هؤلاء الفرنجة مقاطعات بحر إيجه والبحر المتوسط من آسيا الغربية لنفوذهم وأرجعوا حدود الغرب حتى أطراف الصحراء السورية ـ الفلسطينية.

2 Grousset, *L'Epopée des Croisades*, p. 11.

٣ ـ الأسباب المباشرة لفكرة الصليبية

منذ العام ٦٣٨ كانت فلسطين والقدس مهد المسيحية تحت سلطة الإسلام. وتحت إدارة عباسيي العراق العرب ـ الفرس وفاطميي مصر العرب ـ البرابرة الذين استرخوا بفعل الحضارة فإن العالم الإسلامي فقد منذ زمن بعيد طاقته القتالية الأولى وحميته التوسعية. وإن دخول الأتراك السلاجقة الى المسرح غيّر من ذلك الوضع السلمي.

«ففي ذلك اليوم من العام ١٠٥٥... الذي دخل فيه طغرل بك الى بغداد وفرض نفسه على الخليفة العربي كسلطان ونائب زمني مضيفاً بذلك فوق الأمبراطورية العربية امبراطورية تركية... وعندما أصبح الأتراك بفضله العرق الأمبراطوري في العالم الاسلامي... عندها فإن الفتح الإسلامي المتوقف منذ قرنين عاود سيره»[٣].

إن فتح أرمينيا المسيحية على يد الترك السلاجقة وكارثة ملاذجرد (١٠٧١)، التي هزم فيها الأمبراطور البيزنطي رومانوس ديوجينوس وخسارة آسيا الصغرى التي غزاها الأتراك وتشكيل امبراطورية آسيوية واسعة وقوية في عهد السلطان ملك شاه (١٠٧٢ ـ ١٠٩٢) كانت تمتد من إيران الشرقية الى إيجه والمتوسط، كل ذلك كان له في الغرب وقع عميق ترجم على الفور بإرادة حثيثة للتدخل.

«إن انهيار الامبراطورية البيزنطية بعد ملاذجرد وتخلفها عن أي رد فعل عند إحتلال آسيا الصغرى على يد العرق التركي والإسلام أقنعا دول الغرب حيال ذلك العجز بضرورة التدخل لإنقاذ اوروبا المهددة بشكل مباشر. إن مؤرخينا القدامى لم يخطئوا. فغليوم الصوري رأى في كارثة ملاذجرد إخراج اليونانيين نهائياً من دورهم كحماة للمسيحية، ومسوغاً تاريخياً أو تبريراً لدخول الفرنجة الى المسرح للحلول محل هؤلاء الشركاء الذين أصبحوا في حالة عجز...

وفي ٢٧ تشرين الثاني ١٠٩٥، وهو اليوم العاشر من مجمع كليرمون الديني، فإن البابا أوربانوس الثاني دعا المسيحية كلها الى حمل السلاح في نداء وجهه الحبر الأعظم دفاعاً عن الإيمان المهدد بالغزو الاسلامي الجديد، أي في

3 Grousset, *L'Epopée des Croisades*, p. 3.

نداء من الوريث الحقيقي للأباطرة الرومان للدفاع عن الغرب. . . وإستجاب الشعب من كل صوب بصرخة واحدة «الله يريد ذلك» وقد رددها أوربانوس نفسه وجعل منها شعار الحملة وأمر جنود المسيح المقبلين بأن يحملوا على ردائهم شعار الصليب. وهكذا ولدت «الحملة الصليبية» فكرة زاحفة ستدفع بالأمراء وعامة الشعب حتى قلب الشرق. وإن الفكرة الصليبية الخارجة من مجمع كليرمون لا يمكن مقارنتها في هذا الصدد إلا بفكرة الوحدة الخلقينية الصادرة عن مؤتمر كورنتوس المنعقد العام ٣٣٦ ق.م. والذي اطلق الاسكندر الأكبر ومعه كل اليونان لغزو آسيا»[4].

٤ ـ إعادة فتح اسبانيا والحرب الصليبية في الشرق

قبل نداء البابا أوربانوس الثاني بكثير ومنذ مطلع القرن الحادي عشر فإن إعادة فتح إسبانيا التي سميت ريكونكويستا ، والتي كانت بدورها حملة صليبية ينقصها الإسم، كانت قد هيأت النفوس في أوروبا الغربية لفكرة الحملة الصليبية. لكن الصراع ضد عرب اسبانيا وأفريقيا وصقلية كان يتميز عن الحملة الصليبية بحد ذاتها كون الأولى كان دافعها محض سياسي في حين ان الثانية إتخذت طابعاً دينياً صريحاً إذ شنت لإنقاذ قبر المسيح وحماية مسيحيي الشرق. «وحتى ذلك الحين فإن الحملات ضد المسلمين، سواء في صقلية أو موانىء أفريقيا الشمالية، إحتفظت بطابع سياسي بحت. بل حتى إعادة فتح إسبانيا فإن حركة ريكونكويستا ، التي تعتبر صورة مسبقة عن الحملة الصليبية المقبلة، كانت حركة محصورة في شبه جزيرة ايبيريا ترمي الى خدمة قسطيلية أو الأراغون. إن فكرة أوربانوس الثاني كانت فكرة ـ قوة، فكرة زاحفة سوف تهز العالم. وقد تميزت عن الحملات السابقة بطابعها الديني الصرف وهي متجردة أصلاً ودولية الطابع. وقد دعا البابا المسيحية بأسرها الى محاربة الإسلام.

ومنذ أن أعلن الخلفاء العرب الأولون الجهاد ضد المسيحيين فإن الدول المسيحية، برغم الطابع الطائفي الذي لفت إنتباهنا لديها فإنها لم تجابه الإسلام إلا بمقاومة فردية. . . وأما مع أوربانوس الثاني فإن المسيحية برمتها ردت على الإسلام بحرب مقدسة عامة. ومن هذا القبيل فإن الحملة الصليبية كانت صنو الجهاد في مواجهته. ويمكننا القول إن الحملة الصليبية هي جهاد مضاد.

ومن هنا النجاح المنقطع النظير الذي رافق الدعوة ـ النداء العام ١٠٩٥

4 Grousset, *L'Epopée des Croisades*, p. 5-6.

إذ إنتشرت الحملة الصليبية بسرعة فائقة كونها فكرة عاطفية تثير روحانية جماعية مثل فكرة الحرية لاحقاً أو فكرة القومية أو العدالة الإجتماعية. لقد فعلت تلك الإيديولوجية والروحانية اللتان أطلقهما أوربانوس الثاني في كليرمون فعلهما في نفوس الجماهير وحركا الإنطلاقة الروحية الخارقة العام ١٠٩٥... وقد بلغ هذا الإندفاع الشعبي تدريجاً أوساط الفرسان ثم عالم البارونات، من غير ان يلتحق به هذه المرة (وهذا ذو دلالة ومغزى) أي من الأمراء في الحكم: ذلك أن المصلحة العليا لم تكن لتتقبل بعد هذه الحركة الكبيرة ذات الإيديولوجية الدولية»[٥].

٥ ـ فكرة الحملات الصليبية والواقع الإستعماري

إن الإيمان الذي كان ما يزال متأججاً جداً في القرن الحادي عشر لعب بلا ريب دوراً كبيراً في الحملات الصليبية. ولكننا نجد أسباباً أخرى أيضاً أسهمت إلى حد كبير في إطلاق هذه المجموعة البشرية الهائلة نحو الشرق الأدنى.

إن أوروبا الإقطاعية في ذلك العصر كانت في عز توسعها. وتربية النبلاء كانت عسكرية خالصة. وكان الفرسان متحمسين وأشداء ومتعطشين إلى الحركة فلم يكونوا يصلحون إلا للحرب ولم يكن أمامهم مجال لتوجيه نشاطهم القتالي سوى إقطاعيات الأسياد المجاورين. وقد أثارت الدعوة الصليبية الأمبريالية العسكرية لدى هؤلاء الملوك الصغار الإقطاعيين وفي الوقت نفسه أهاجت الإستعمار الإقتصادي لدى الجمهوريات البحرية الإيطالية التي كانت تطمع بأسواق الشرق الغنية. فالأساطيل الإيطالية سوف تموّن الجيوش الصليبية على شاطىء سورية وتساعدها على احتلال المرافىء.

ومن جهة أخرى فالبؤس الذي سببه القحط والمجاعة والطاعون وسواها من الكوارث التي كانت تعبث منذ زمن طويل بأوروبا الغربية دفعت العديد من الرجال إلى ترك منازلهم لإحتلال بلاد أحسن حالاً. «لذلك أصبحت ظروف الحياة في نهاية ذلك القرن الحادي عشر قاسية جداً في الغرب. إنها فترة من فترات الأزمات التي تشهدها الشعوب في تواريخ متفاوتة البعد. ففي

5 Grousset, *Les croisades*, p. 19- 20.

القصور الإقطاعية إنتهى الأمر بالبارونات أنفسهم إلى أن يعيشوا حياة كئيبة وقاسية وبائسة»[6].

وهكذا فإن جيش الصليبيين الهادف أصلاً إلى القيام برسالة مقدسة كان يضم مجموعة لا يستهان بها مِن الناس الفاسدين وعديمي الضمير «من المغامرين أو الفرسان اللصوص». و«إن كل تلك العناصر المشبوهة، التي خففت من حدتها قليلاً روح العام ١٠٩٥ الإيمانية، ما أن وصلت إلى أرض آسيا حتى إستعادت غرائز السلب الوحشية فيها. بحيث تحول نذر العام ١٠٩٥، حتى لدى البارونات أنفسهم وبسرعة، إلى إحدى أكثر المغامرات ربحاً... فالصليبي أصبح فاتحاً يبيح لنفسه كل الأساليب من عنف ويمين كاذبة بل وقتل شرط أن يعزز وضعه المادي... وهكذا يتضح لنا إلى أي مدى ستستغل إيديولوجية الحملات الصليبية كستار يحجب حقائق مغايرة لمفهومها تماماً»[7].

وبعد إقامة الفرنجة في بلدان المشرق سرعان ما سيحل واقع الإستعمار مكان الإيمان الصليبي الذي لن يزول تماماً وروح الفتح. فقد بات همّ الصليبيين إدارة الأراضي المحتلة وحكمها والعيش في وفاق مع الأهالي الأصليين وإقامة علاقات مع الدول المجاورة والتوفيق بين التعصب الديني لدى الصليبي الروحاني وتسامح المستعمر الواقعي وتساهله.

٦ ـ الخاتمة

إن الحملات الصليبية، التي تشكل إحدى المراحل الكبرى في التنافس الدهري بين آسيا وأوروبا، هي أول عمل إستعماري قام به الغرب الأوروبي في المشرق بعد التوسع اليوناني والروماني في آسيا. إن تلك الحملات، وقد إستندت أولاً على أفكار ـ قوة روحية وسياسية وإقتصادية، أفادت فضلاً عن ذلك من وحدة في الإدارة متمثلة بالبابوية الرومانية وفي الوقت نفسه من الإنقسام والفوضى اللذين كانا يسودان العالم التركي ـ الإسلامي في ذلك العصر.

لكن ذلك التوسع الإستعماري، الذي قام به الغرب والذي إستقر

6 Funck-Brentano,, *Les Croisades*, p. 10.

7 Grousset, *Les Croisades*, p. 21.

قرابة القرنين في سورية البحرية وفلسطين، سوف يصطدم قريباً بعوامل معاكسة كتلك التي ساعدت على قيامه الأول. فالظروف التي ساعدت على دخول الصليبيين إلى بلاد الإسلام سوف تتغير بعد ذلك لتنقلب إلى عكسها تماماً في النهاية. فالإنشقاق والفوضى والصراعات الأخوية، التي منعت الأتراك السلاجقة في البدء من توحيد جهودهم لمقاومة الغزو الفرنجي، لن تلبث أن تنتقل من صفوف المسلمين إلى صفوف الصليبيين وتشل عمل قادتهم الموجهين. وفي المقابل فإن النظام والوحدة اللذين عادا إلى صفوف المسلمين سيسمحان لهم بإستعادة زمام المبادرة لصالحهم وطرد الصليبيين.

وبعد رحيل الصليبيين لم يبق شيء من عملهم الإستعماري سوى بعض القلاع التي شادوها والتي تشهد خرائبها حالياً على هندسة عسكرية رائعة وعظيمة. وكما حصل بعد توسع العام ٦٤٠ العربي حين تم طرد اليونان ـ الرومان إلى ما وراء طوروس كذلك فبعد العام ١٢٩١، وهو تاريخ إستسلام آخر عاصمة فرنجية وهي عكا وجلاء الصليبيين عنها، فإن الصورة العامة للإمارات الفرنجية السابقة والتي إستعادها الإسلام، ستعاود الظهور بسماتها الأصلية. «ولم يحصل في التاريخ أن أزيل إستعمار كما أزيل الإستعمار الصليبي تماماً» (غروسيه). ذلك أن الإستعمار الفرنجي للمشرق، مثله مثل الإستعمار اليوناني ـ الروماني في الماضي، لم يكن سوى إستعمار سطحي. فالإمارات الفرنجية كانت «مستعمرات أطر إدارية لا مستعمرات إعمارية. فغالبية سكانها ظلوا مسلمين أو سرياناً في سورية ويوناناً في قبرص»[8].

إن الحملات الصليبية التي إنتهت إلى فشل ساحق بالنسبة إلى أوروبا أثارت كردة فعل عليها وحدة مختلف الأمم الإسلامية في الشرق الأدنى. «وكانت النتيجة ثأر آسيا من أوروبا وغزو الآسيويين لجزء كبير من أوروبا وإحتلاله. وحوالي العام ١١١٨، وبعد نجاح الحملة الصليبية، فإن حدود أوروبا امتدت حتى قدس والموصل في قلب بلاد ما بين النهرين. وفي العام ١٥٢٩ تراجعت تلك الحدود حتى مداخل فيينا».[9]

وإذا كانت الحملات الصليبية قد أخفقت على الصعيدين السياسي والعسكري بيد أن هذه الحملات الكبرى في المقابل عادت بنتائج هامة على الصعيدين المادي والمعنوي.

8 Grousset, *Les Croisades*, p. 123.
9 Grousset, *Les Croisades*, p. 124.

فبفضلها تطور حب الترف والرفاهية في الغرب وإنتشر الولع بالملابس والأشكال الشرقية. لكن النتائج المعنوية كانت أهم بكثير. فالحملات الصليبية إنتزعت الغربي المتمسك بقريته الأم، من حياة الركود التي كان عليها، وإن تلك الحركة لن تتوقف أبداً بعد ذلك التاريخ. فالحاج العائد من الشرق لم يعد هو نفسه كما كان عند إنطلاقه. فقد رأى بلداناً جديدة وإجتاز مناطق غريبة واسعة وتعرف إلى شعوب أخرى وعادات وأديان أخرى وأعجب بصروح غنية. ولقد ضعف إيمانه الديني، لأن الأعداء الذين جاء لمحاربتهم ليسوا شياطين أو متوحشين بل هم بشر مثله أغنياء ومَهَرة وشجعان وغالباً أسخياء يتمتعون بروح الفروسية البطولية. وتعلم هكذا بأن المسلم أو الكافر قد يكون رجلاً شريفاً وفارساً مقداماً. وقد نعمت موانىء الساحل السوري ـ الفلسطيني أيام الفرنج بإزدهار كبير. وإن بقايا المدن والقصور التي بناها الصليبيون ما تزال ماثلة في كل مكان.

«نمو التجارة والرفاهية في الغرب والوهن الذي إعترى التعصب الديني تلك هي النتائج المهمة التي أدت إليها الحملات الصليبية وإن كان الثمن الذي دفع للحصول عليها باهظاً بعض الشيء».

II. الحملة الصليبية الأولى
وتأسيس الدول الفرنجية في الشرق

لقد رأينا الأسباب الدينية والسياسية التي أدت إلى قيام الحملات الصليبية. ويجمل المؤرخون عدد تلك الحملات بثماني. إستهدفت أربع منها فلسطين نفسها وإثنتان مصر وواحدة القسطنطينية وواحدة أخيراً أفريقيا الشمالية. ويتضح من تنوع أهداف تلك الحملات أنها لم تكن ترمي إلى إنقاذ الأماكن المقدسة وحسب بل أيضاً وخصوصاً تحقيق هدف إستعماري.

١ ـ صليبيو الحملة الصليبية الأولى في القسطنطينية وآسيا الصغرى (١٠٩٦ ـ ١٠٩٧)

أ ـ حملة البارونات، جيش دولي

إن الحملة الصليبية الأولى قام بها البارونات الفرنجة الذين كانوا يشكلون أربع مجموعات عسكرية متميزة. المجموعة الأولى كانت بقيادة غودفروا دو بويون دوق برابنت (بلجيكا الغد) ويرافقه أخوه بغدوين دو بولون (فرنسا). وقد وصل هذا الجيش إلى القسطنطينية في ٢٣ كانون الأول ١٠٩٦. وكانت المجموعة الثانية تتألف من نورمنديي إيطاليا الجنوبية ويقودها بوهموند دو تارنت يواكبه إبن أخيه طنكريد دو سيسيل وقد بلغت أبواب القسطنطينية في نيسان ١٠٩٧ حيث إلتحقت بالمقر العام للصليبيين. وكان يقود المجموعة الثالثة ريمون دو سان جيل كونت تولوز. فيما تشكلت المجموعة الرابعة من فرنسيي الشمال وكان على رأسها كونت النورماندي روبرت دو كورت هوز إبن غليوم الفاتح وكونت الفلاندر روبرت الثاني. وكان البابا أوربانوس الثاني قد عين على رأس تلك الجيوش شبه النظامية القاصد الرسولي أديمار دو مونتيل

أسقف بوي (في فرنسا). وكما يتضح فالجيش الصليبي المؤلف من وحدات عسكرية تنتمي إلى مختلف جنسيات أوروبا الإقطاعية كان جيشاً دولياً وكان رؤساؤه ينظرون بعين الحسد بعضهم إلى بعض ويطمح كل منهم إلى أن يحصل لنفسه على حساب الآخرين على مملكة في البلاد المزمع احتلالها.

«كانوا يتحدثون باللغات الأكثر تنوعاً إذ كان منهم فرنسيون وفلمنكيون وفريزون وغاليون وبريتون ولورين ورين ونورمنديون وإسكتلنديون وإنكليز وأكيتينيون وإيطاليون وإيبيريون وداسيون ويونان وأرمن»[1].

«ولإعتماد تسمية مشتركة فيما بينهم إتخذوا إسم الفرنجة مضفين على ذلك الإسم المعنى الذي كان يحمله أيام الوحدة الكرولنجية عندما كانت غاليا وجرمانيا وإيطاليا تشكل أمبراطورية واحدة تحت إلكنيسة الرومانية»[2].

ب ـ الصليبيون في القسطنطينية، إتفاق مع الأمبراطور (١٠٩٧)

وبعد مفاوضات عاصفة في القسطنطينية قبل رؤساء الصليبيين بأن يقسموا يمين الولاء والإخلاص للأمبراطور ألكسيس كومنينوس وتعهدوا بأن يردوا إليه كل الأراضي التي يستعيدونها والتي كانت في الماضي جزءاً من الأمبراطورية البيزنطية وقد إستولى عليها الترك. وفي المقابل تعهد الأمبراطور بأن يزود الحملة بكل ما تحتاجه من عون: من مؤن ونقل الجنود في آسيا الصغرى فضلاً عن المساعدة المالية وحتى العسكرية (١٠٩٧).

ووفقاً لهذا الإتفاق فإن مدينة نيقيا، عاصمة سلطنة الأناضول السلجوقية عندما إستسلمت إلى الصليبيين فقد عاود البيزنطيون إحتلالها (١٠٩٧) وكانت قبل ١٦ عاماً قد إنتزعها منهم الأتراك. وبعد إحتلال نيقيا توجه الصليبيون نحو الجنوب الشرقي في إتجاه سورية.

ج ـ نصر دوريلة (١٠٩٧)، البيزنطيون يسترجعون الأناضول الغربية.

وعلى الهضبة الأناضولية فإن أتراك آسيا الصغرى، الذين كانوا يحاولون عرقلة تقدم الصليبيين، جمعوا كل قواتهم تحت إمرة السلطان السلجوقي كيليج إرسلان. وبعدما هزمهم الصليبيون قرب دوريلة (إسكي شهير حالياً) فإنهم إنسحبوا عبر الممرات والجبال تاركين للصليبيين المتصرين غنائم كبرى

1 Funck-Brentano, *Les Croisades*, p. 49.

2 Grousset, *L'Epopée des Croisades*, p. 26.

(١٠٩٧). وأفاد الأمبراطور البيزنطي ألكسيس من هذا النصر الفرنجي لينتزع من السلاجقة ما بقي من بيتينيا وإزمير وإفسس (١٠٩٧) ثم وفي السنة التالية (١٠٩٨) ليديا وفريجيا. وهكذا إمحت الهزيمة ـ الكارثة التي بلي بها اليونان العام ١٠٧١ في ملاذجرد.

«إن معركة دوريلة حسمت لأكثر من قرن مسألة القوة في الشرق الأدنى. فمنذ معركة ملاذجرد وأسر أمبراطور بيزنطي على يد سلطان تركي العام ١٠٧١ في ملاذجرد كانت القوة التركية تسود الشرق. إن معركة أول تموز ١٠٩٧ أعلنت للملأ أن قوة جديدة قد قامت، هي القوة الفرنجية التي سترجح كفتها من الآن فصاعداً. وفي هذا الصدد فإن معركة دوريلة، بمحوها هزيمة ملاذجرد، إنما إتخذت في تاريخ آسيا أهمية كبرى توازي أهمية معارك غرانيك وأربيل. وإن قرنين من الهيمنة الأوروبية على الشرق سينتجان عنها، سيتراجع خلالهما المد التركي ليس أمام الفتح الفرنجي في سورية وفلسطين وحسب بل وأمام إعادة الإحتلال البيزنطي لآسيا الصغرى»[3].

٢ ـ إحتلال أنطاكيا وتأسيس دولتين فرنجيتين في أنطاكيا وقدس (١٠٩٨).

أ ـ حصار أنطاكيا (١٠٩٧)

وعندما وصل الصليبيون إلى جبال طوروس الشرقية ومنطقة مرعش إستقبلهم هناك وساعدهم الشعب الأرمني النشيط الذي كان قد إنسحب نحو الكبادوك وكيليكيا ومنطقة قدس. وبعد إحتلال الأتراك لأرمينيا غداة معركة ملاذجرد العام ١٠٧١ فإن هؤلاء الأرمن، الذين شكلوا عنصراً عسكرياً قوياً، ساعدوا الصليبيين للإستيلاء على طرسوس وأضنه ومرعش. ومن هناك نزل الصليبيون نحو سورية الشمالية وضربوا الحصار أمام أنطاكيا (تشرين الأول ١٠٩٧). وفي ذلك التاريخ كانت أنطاكيا خاضعة لأمير تركي كان تابعاً لرضوان ملك حلب السلجوقي وإبن الأمير الشهير توتوش والذي كان أخوه دقاق يحكم دمشق. ومن جهة أخرى فإن تلك المدينة الكبيرة في شمال سورية كانت إحدى أحصن المدن في الشرق ولذا فإن حصارها دام أكثر من سبعة أشهر كانت شاقة للغاية على الصليبيين. ولحسن حظ هؤلاء كانت الخصومات

3 Grousset, *L'Epopée des Croisades*, p. 28-29.

تشل الأمراء الأتراك: فأمير أنطاكيا كان على خصام مع عاهله رضوان أمير حلب وكان هذا الأخير على خلاف مع أخيه أمير دمشق. وفي شباط ١٠٩٨ فإن رضواناً، الذي حاول فك حصار المدينة، ردّ خائباً.

ب ـ مفاوضات فرنجية ـ مصرية (١٠٩٧ ـ ١٠٩٨)

وخلال حصار أنطاكيا جرت مفاوضات، وتبودلت الرسائل بين المصريين والفرنجة. ويختلف المؤرخون حول طبيعة تلك المفاوضات. فبعض المؤرخين العرب يسيئون الظن بتلك الإتصالات ويعتبرونها خيانة متهمين حكومة الفاطميين القاهرية بنيات مرحبة بالفرنجة. يرى إبن الأثير أن الفاطميين القلقين من تعاظم قوة السلاجقة الذين بإقامتهم في فلسطين يشكلون خطراً على وادي النيل، قد يكونون هم الذين سهلوا على الفرنجة احتلال فلسطين وتأسيس إمارة فرنجية فيها تكون بمثابة دولة عازلة بين أمبراطورية مصر الفاطمية وأمبراطورية سورية السلجوقية.

ودون المضي إلى حد إتهام الفاطميين بخيانة الإسلام في ذلك العصر إلا أن الشيء الأكيد الذي يجمع عليه المؤرخون هو أن مفاوضات جرت بين الفاطميين والفرنجة خلال حصار أنطاكيا وتبودلت الرسائل بين الطرفين بين العام ١٠٩٧ والعام ١٠٩٨ وأنه فيها إستنفر مختلف الأمراء الأتراك ـ السوريين والأتراك ـ المابينهريين، المتأثرين لسقوط أنطاكيا، جيوشهم، فإن مصر التي كانت قد إنتزعت أورشليم من السلاجقة لتوها، على العكس لم تحرك ساكناً لا بل ظلت غير مبالية حيال تقدم الفرنجة الذين تحركوا من أنطاكيا. برغم أن مصر في ذلك التاريخ، وفي ظل حكم الوزير أفضل، كانت تشهد إستقراراً شبه تام ولم ينقص الفاطميين العزم.

في الواقع إن البوادر المرحبة من جانب الحكم الفاطمي تجاه الصليبيين والمفاوضات التي جرت بين الفاطميين والفرنجة، برغم طابعها المخزي في نظر العالم الإسلامي في ذلك العصر، غير أنها كانت تلتقي مع مصالح مصر الخاصة ومع سياستها التقليدية والدهرية في فلسطين وسورية.

ونحن نعلم أنه، ومنذ طرد الهكسوس من مصر في حوالي منتصف الألف الثاني ق.م. فإن سورية الجنوبية تشكل بالنسبة إلى وادي النيل منطقة حماية لا غنى عنها ضد الغزوات المحتملة القادمة من الشرق الأسيوي. وإن هذه الإعتبارات البالغة الأهمية هي التي حملت مصر القديمة دوماً على محاربة

أي تشكيل سياسي قوي (سورية الكبرى أو الهلال الخصيب) يحاول القيام على حدودها الشرقية من جهة، ومن جهة أخرى على السعي بأن تحتل هي نفسها فلسطين.

والحال أنه منذ توسع الأتراك السلاجقة في الشرق الأدنى فإن هؤلاء الذين سيطروا على كل آسيا الأمامية ، وبرغم الخلافات الداخلية بين أمرائهم، قد وحدوا تحت هيمنة سلطانهم الأكبر المقيم في فارس، بلدان آسيا الصغرى وبلاد ما بين النهرين وسورية وفلسطين. وإن مصر، وقد تنبهت للخطر الذي تشكله تلك الهيمنة الواسعة على إستقلالها، كانت بالطبع معادية له.

وإلى جانب ذلك العداء السياسي الذي كان يجبه فاطمي مصر بسلجوقي آسيا، كان هناك تعارض عرقي وديني يزيد من حدة هذا العداء: بين العرب الشيعة من جهة والترك السُنة من جهة أخرى. «إن إحدى أهم نقاط الخلاف بين الخصمين كانت فلسطين، فالحكم المصري لم يكن يغفر للأتراك إنتزاعهم تلك المقاطعة منه. وعندما رأى الأتراك في صراع مع الإجتياح الفرنجي على جبهة أنطاكيا إنتهز الفرصة ليضربهم من الخلف من جهة برزخ السويس ويستعيد منهم فلسطين. بالطبع كانت تلك خيانة للإسلام لكن منصب الوزير الأكبر في القاهرة كان يشغله أرمني إعتنق الإسلام كانت حميته الإسلامية بالطبع فاترة. وهذا الجاحد لم يكن يدرك أيضاً الحماسة الدينية التي كانت تدفع بالصليبيين نحو القدس. فأرسل وفداً رسمياً إلى الفرنجة المحاصرين لأنطاكيا ليعرض عليهم حلفاً ضمنياً مع إقتسام الممتلكات التركية في سورية وفلسطين: بحيث يأخذ الفرنجة أنطاكية وسورية ويأخذ المصريون القدس وفلسطين».[4]

إن الإقتراح المصري زود الصليبيين بوسيلة فعالة لوضع إسفين الإنقسام في قلب العالم الإسلامي وضرب معنويات الترك عن طريق هجوم مصري على سورية الجنوبية. وإن المصريين، وقد شجعوا على أهدافهم تلك، بادروا إلى إجتياح فلسطين وإستولوا على القدس (١٠٩٨).

ج ـ الصليبيون يحتلون أنطاكيا (١٠٩٨)

وبعدما طال الحصار الصليبي لأنطاكيا فإن الصليبيين بدأت تنفد منهم

4 Grousset, *L'Epopée des Croisades*, p. 34, 35.

المؤن. وما لبث البلد الذي إكتسح ودمر أن أصبح عاجزا عن توفير الطعام للمحاصرين وبات البؤس مرعباً لا يطاق. فضلاً عن أن إمدادات عسكرية أرسلها السلطان السلجوقي من فارس بقيادة كربوكة أمير الموصل ظهرت على العاصي. ففهم الصليبيون بأنهم هالكون لا محالة ما لم يحتلوا أنطاكيا قبل وصول كربوكة. وإن بوهيموند الطامع بالإستيلاء على المدينة والذي تعهّد له اصحابه بأن يتركوا له السلطة فيها، نجح في احتلالها عن طريق خيانة ارمني جاحد يدعى فيروز. فكانت المذابح رهيبة وبقي أميرها التركي بين الأموات (١٠٩٨).

وبعد خمسة وعشرين يوماً من دخولهم أنطاكيا فإن الصليبيين الجائعين والمنهكين حاصرهم جيش كربوكة القوي الذي وصل لتوه. فأصبح المحاصرون، بين نفاد المؤن ووباء الطاعون الذي بدأ يفتك بهم، في وضع حرج. فهرب كثيرون من الصليبيين من المدينة وبينهم شخصيات كبيرة بعدما أصبحت المجاعة رهيبة والحالة مأساوية. ولحسن الحظ فإن إكتشاف الحربة المقدسة التي طعن بها جنب المسيح، وكانت مخبأة تحت بلاط إحدى كنائس أنطاكية، كان له فعل المعجزة على الجنود الذين عادت إليهم روحهم الباسلة للقتال فإنتقلوا إلى الهجوم وهزموا الأتراك وشتتوهم وفر كربوكة إلى حلب ثم إلى الموصل. وإستولى الصليبيون على غنائم ضخمة (١٠٩٨).

د ـ تأسيس إمارة أنطاكية وكونتية قدس

إن الطاعون والحاجة إلى إعادة تكوين الجيش المرهق والإنقسامات في صفوف الأمراء الفرنجة حول إمتلاك أنطاكيا أخرت المنتصرين في هذه المدينة طوال صيف ١٠٩٨. وقامت فصائل منهم أرسلت نحو الشرق، بإحتلال موقع معرة النعمان في شمال سورية وقدس (أورفه) شرق الفرات. إن أنطاكيا وقدس، وقد جعلتا دولتين، أصبحتا بعد ذلك التاريخ الأولى إمارة أنطاكيا والثانية كونتية قدس. وإن هاتين الدولتين الفتيتين ستدوم أولاهما ١٧٠ عاماً (١٠٩٨ ـ ١٢٦٨) والثانية ٤٦ عاماً (١٠٩٨ ـ ١١٤٤). وأخيراً وفي مطلع العام ١٠٩٩ فإن الجيش الصليبي، الذي قرر الزحف بإتجاه القدس، إقترب من الشاطىء السوري اللبناني متخذاً خط سيره من طرابلس حتى شمال يافا ليظل على إتصال بالأسطول المسيحي.

٣ ـ تأسيس مملكة القدس وتنظيمها

أ ـ إحتلال القدس (١٠٩٩)

إن الإنتصارات الفرنجية في آسيا الصغرى وانطاكيا أرهبت الأمراء المسلمين في سورية فقام أمراء طرابلس وبيروت وصور وعكا بتزويد الجيش الصليبي العابر أراضيهم بالمؤن اللازمة. ثم ترك الصليبيون الساحل شمال يافا وساروا، بعد تقلص عددهم كثيراً، عبر هضبة اليهودية وإجتازوا بيت لحم ووصلوا في ٧ حزيران أمام القدس التي تراءت لهم قبابها. «وعندما طرق هذا الإسم مسامعهم: القدس، لم يتمالكوا من حبس دموعهم وخرّوا ساجدين شاكرين الله الذي سمح لهم ببلوغ هدف حجهم أي المدينة المقدسة حيث أراد السيد المسيح إنقاذ العالم».[٥]

وفي ذلك الوقت كانت القدس في أيدي الفاطميين الذين إنتزعوها من الأتراك عندما كان هؤلاء في قتال مع الصليبيين حول أنطاكيا. إن المدينة المقدسة، التي وضعها الفاطميون على عجل في حالة دفاع، سرعان ما هاجمها الصليبيون في ١٤ تموز وإحتلوها في اليوم التالي أي في ١٥ تموز ١٠٩٩ بعد إقتحام مروع أعقبته مع الأسف مذبحة رهيبة إستهدفت المهزومين (١٥ تموز ١٠٩٩). وهذه المذبحة التي «صعق لهولها الظافرون أنفسهم» كانت غير إنسانية وخرقاء من الناحية السياسية. لأن مسلمي مدن الساحل الفلسطيني الخاضعين لفاطميي مصر، وقد ذهلوا لمصير أبناء دينهم في القدس، حادوا عن أي فكرة إستسلام وتصلبوا في مقاومة يائسة.

ب ـ تنظيم مملكة القدس الفرنجية

وعهد الصليبيون بحكم المدينة المقدسة المحتلة إلى غودفروا دو بويون مؤثرينه على ريمون دو سان جيل الذي كانت سلطته وطموحه يخيفان سائر البارونات في حين أن شجاعة وصبر وعلى الأخص تفاني غودفروا كانت تنبىء بأن «هذا الراهب المتوج سيكون ملكاً صالحاً».

«وبالفعل فإن غودفروا لم يحمل حتى اللقب الملكي إنه وبتواضع رائع رفض، كما تقول إحدى الروايات، أن يضع التاج الذهبي على رأسه في المكان الذي لم يوضع فيه على رأس المسيح إلا إكليل الشوك. وإكتفى بحمل اللقب

5 Cité par Grousset, *L'Epopée des Croisades*, p. 42.

الأكثر تواضعاً بكثير وهو لقب المدافع عن القبر المقدس. وفي نظر هذا المسيحي المتعبد فإن ملك القدس الوحيد هو المسيح أو نائبه الحبر الأعظم الروماني. وأما هو فلم يكن سوى وصي على القدس لحساب الكنيسة».[6] بهذا يبدو أن الوضع النهائي للدولة الفرنجية الجديدة قد حدد.

وبعد عشرين يوماً من سقوط القدس في أيدي الصليبيين ظهر جيش مصري قوي يقوده الوزير شخصياً، في فلسطين. فما كان من غودفروا إلا أن هب للقائه بجيش أقل منه عدداً، فباغته بهجوم صاعق لم يكن ينتظره بين عسقلان والبحر (١٢ آب ١٠٩٩) فهزم المصريون وفروا.

وبعد هذا النصر عادت النزاعات تشل من جديد تحرك البارونات الفرنجة وتمنعهم من الإفادة من نصرهم للإستيلاء على مدن الساحل الفلسطيني وبخاصة مدينة عسقلان الحصينة التي هي مدخل فلسطين من الجهة المصرية، هذه المدينة المهمة التي كبدت الفرنجة مشقات كثيرة لن تسقط إلا العام ١١٥٣.

وبعد الإستيلاء على القدس ونصر عسقلان فإن بارونات فلسطين الفرنجة، والذين عاد بعضهم إلى أوروبا، إنفصلوا. ولم يبق سوى غودفروا وإلى جانبه الأمير الإيطالي النورمندي طنكريد مع بضع مئات من الخيّالة. وناحية الشمال في أنطاكيا وقدس كان يحكم في الأولى بوهيموند والثانية بغدوين. وإن الفرنجة بإنهائهم حالة الإستنفار قبل أوانها وتأسيس ثلاث إمارات مسيحية هزيلة بعيدة عن بعضها بعضاً ولا إتصال بينها في بلاد معادية واسعة سيكون له نتائج خطيرة في المستقبل.

«إن دولة الفرنجة في الشرق إستمرت مع ذلك بفعل خلافات العالم الإسلامي وإنحطاطه... إن الصليبيين، الذين إكتفوا بإحتلال أنطاكيا والقدس، لم يهتموا عندما كانوا في عز زخمهم بأن يتخلصوا من الإسلام السوري. وسوف يكتفون لاحقاً باحتلال سورية الجنوبية وفلسطين. لكن وبرغم جهودهم لم يتمكنوا يوماً من احتلال حلب وحماة وحمص ودمشق. فسورية الداخلية، المستندة إلى كل آسيا السلجوقية والعباسية، ستظل إذن في أيدي المسلمين. ولذا وانطلاقاً من هذا الواقع فإن سورية الفرنجية ستقتصر على شريط

6 Grousset, *L'Epopée des Croisades*, p. 47.

ساحلي يراوح عمقه بحسب العصور، لكنها دائماً مهددة بأن ترمى في البحر بفعل هجمات آتية من بلدان الداخل»[7].

ج ـ توسع أرضي لمملكة أورشليم

خلال فترة حكمه القصيرة للغاية نجح غودفروا دو بويون (١٠٩٩ ـ ١١٠٠) بالوسائل الضئيلة بين يديه في بسط السيادة الفرنجية على كامل اليهودية والسامرة والجليل. ومات وهو في نزاع مع دامبيرتوس، بطريرك اللاتين الجديد على أورشليم الذي كان يطالب بأن تكون ملكية المدينة المقدسة للكنيسة.

وأما بغدوين الأول (١١٠٠ ـ ١١١٨) أخو غودفروا دو بويون وخلفه فكان، كما رأينا، كونت قدس. ووصل إلى أورشليم وإستقبله فيها كل الشعب المسيحي «كسيد وملك عليهم». وبرغم معارضة البطريرك دامبيرتوس لترشيحه لكنه عاد وسلم بالأمر وإعترف به وتم تكريسه ملكاً على أورشليم في كنيسة المهد في بيت لحم يوم عيد الميلاد العام ١١٠٠.

«إن بغدوين حمل، عن قصد هذه الملكية على محمل الجد وأحاطها عمداً بكل مجالي الفخامة الشرقية مضفياً عليها عظمة شبه توراتية. فجلس على عرش وهو يرتدي برنسا منسوجا من خيطان ذهبية وقد تدلت لحيته الطويلة على طريقة بازيليوس، ملك بيزنطي، وهو يحمل أمامه درعاً مذهباً كبيراً»[8].

لدى تسلمه الحكم فإن بغدوين، الذي لم يكن يمتلك على الشاطىء إلا ميناء يافا، كرس نفسه لفتح سائر الساحل الفلسطيني الذي كان ما يزال في أيدي فاطميي مصر أو أمراء تابعين لهم. وبعدما مشط الأرياف الفلسطينية من الغزاة العرب الذين كانوا يغيرون عليها بإستمرار أفاد بغدوين من وجود بعض القطع البحرية الغربية مصادفة لينتزع من مصر موانىء أرصوف وقيصرية (١١٠١) وعكا (١١٠٤) التي صارت أكبر ميناء مسيحي في الشرق ثم مرفأي بيروت وصيدا (١١١٠). وفي نهاية حكمه لم يعد المسلمون يملكون على الساحل سوى مرفأي عسقلان وصور.

د ـ تدمير حملة دعم صليبية (١١٠١).

وفي العام ١١٠١ جاءت «تعزيزات صليبية» مؤلفة من حجاج لومبرديين

7 Grousset, *Les Croisades*, p. 33.

8 Grousset, *L'Epopée des Croisades*, p. 62-63.

وفرنسيين ووصلت إلى القسطنطينية. إن تلك التعزيزات الصليبية بقيادة ريمون دو سان جيل، التي قبلت به رئيساً عليها، تحولت عن الطريق التي سلكتها الصليبية الأولى، والتي كانت محطاتها معروفة، وغامرت داخل هضبة الأناضول في إتجاه شمال ـ شرق آسيا الصغرى بهدف إنقاذ بوهيموند، أمير أنطاكيا الذي أسره الترك وسجنوه في قلعة ناحية القفقاس. ولدى وصول هؤلاء الصليبيين إلى شرق أنقرة، حيث تعرضوا لمناوشات الخيالة التركمان، أصبحوا على وشك الهلاك نتيجة الإعياء والعطش والجوع في بلاد لا مدن ولا مزروعات فيها، فإنقض عليهم الأتراك فقتلوا العديد منهم وأسروا الباقين (١١٠١) ولم ينجُ إلا بضعة الاف من أصل ١٥٠,٠٠٠ رجل كانت تضمهم هذه الحملة. وأما رئيسهم ريمون دي تولوز فهرب نحو الشمال وعاد عن طريق البحر الأسود إلى القسطنطينية ثم أنطاكيا.

«إن النتيجة الأولى لتلك الكارثة كانت تجريد الفرنجة من الكسب المعنوي الذي أدت إليه إنتصارات غودفروا دو بويون في آسيا الصغرى. وإن الترك الذين، ومنذ العام ١٠٩٧ كانت لهم عقلية المهزومين، عادوا يشعرون بأنهم غزاة، منتصرون». [٩] لذا ولدى إجتياز حملتين صليبيتين أخريين في تلك السنة نفسها (١١٠١) إحداهما مؤلفة من ١٥,٠٠٠ رجل والثانية من ٦٠,٠٠٠ رجل للأناضول أبيدت كلتاهما بالتتالي.

«إن كارثة الأناضول كان لها نتائج وخيمة للغاية على مستقبل الشرق اللاتيني. فالجماهير، التي كانت تذهب لتذبح في هذا الشرق، كانت تشكل بعد فتح القدس ثاني موجة وهي «موجة الإستغلال» والمعدة لتوطيد نجاح الإمارات الفرنجية في سورية وتحويلها إلى مستوطنات حقيقية. وهكذا فإن هذه التعزيزات التي قوامها ٢٠٠,٠٠٠ رجل وهي بمثابة هجرة شعب بأسره لن تصل إلى سورية الفرنجية. وكان لا بد بعد ذلك من العمل بطريقة أكثر تواضعاً وعلى مدى أضيق محصور بإمكانات ذلك الزمن». [١٠]

٤ ـ تأسيس كونتية طرابلس الفرنجية (١١٠٩)

إن ريمون دو سان جيل كونت تولوز «المرشح لكل عروش الشرق»، والذي استبعد ترشيحه لدى تأسيس إمارتي أنطاكيا وأورشليم والذي قاد حملة

9 Grousset, *L'Epopée des Croisades*, p. 72.

10 Grousset, *L'Epopée des Croisades*, p. 73.

التعزيزات الصليبية التي أبيدت في الأناضول (١١٠١)، أخفق هذه المرة أيضاً في محاولته التمركز في أنطاكيا (١١٠١).

إن ريمون، الذي تعقل بفعل فشله المتلاحق، سلم أخيراً بمطمح أكثر واقعية ومتانة هو تأسيسه دولة متناهية الصغر في طرابلس على الشاطىء اللبناني تكون بمثابة كونتية فرنجية صغيرة، وإذ وقع إختياره على أراضي طرابلس وطرطوس الجميلة، وكانا يشكلان في ذلك العصر إمارة عربية بين أنطاكيا وأورشليم، قام، يدعمه أسطول جَنَوي يمخر في عرض البحر، بالإستيلاء، العام ١١٠٢، على مدينة طرطوس الحصينة فجعل منها مقراً لإقامته بإنتظار إستيلائه على طرابلس التي ستغدو عاصمته.

ومنذ العام ١٠٧٠ فإن طرابلس وضاحيتها، اللتين تحررتا من الحكم الفاطمي المصري، كانتا تشكلان تحت حكم إبن عمار، وهو قاض شيعي سابق، إمارة صغيرة مستقلة تابعة لمصر مبدئياً. إن بني عمار، وقد كانوا حكماء ومثقفين، حكموا تلك الإمارة قرابة أربعين عاماً (١٠٧٠ - ١١٠٩) وجعلوا من عاصمتهم مدينة مزدهرة ومركزاً للثقافة يضم إحدى أجمل مكتبات الإسلام[١١].

وبعد عشر سنوات من وصولهم إلى الحكم فإن بني عمار طرابلس إنتزعوا من البيزنطيين مدينة جبلة بين طرطوس واللاذقية (١٠٨٠). إن قاضي جبلة الذي كان في غضون ذلك قد إستقل عن طرابلس، ولحماية نفسه من الصليبيين، سلم المدينة إلى الأتراك السلاجقة الدمشقيين (١١٠١). لكن وفي تلك السنة نفسها أعاد بنو عمار إحتلالها مما جعلهم في نزاع كامن ضد أتراك دمشق ودفعهم إلى عقد علاقات صداقة مع الفرنجة وأصبحوا يزودون قوافلهم المسافرة بين أنطاكيا وأورشليم بالمؤن.

إن علاقات الصداقة تلك بين الطرابلسيين العرب والفرنجة الصليبيين توقفت فجأة إثر إحتلال ريمون دو سان جيل لطرطوس العام ١١٠٢ مع نيته الواضحة للإستيلاء على إمارة طرابلس. وفي العام ١١٠٤، وبمساعدة مسيحي

(١١) تجدر الاشارة هنا الى أن مدينة طرابلس، وريثة المدينة الفينيقية التي تحمل الإسم نفسه ومكملتها، كانت في ذلك العصر مقتصرة على مدينة الميناء (شبه الجزيرة الحالية). أما مدينة طرابلس العصرية اللاحقة التي تنهض اليوم وسط بساتين الليمون على بعد بضع كيلومترات شرقي الميناء فلم يكن لها أي وجود بعد في ذلك التاريخ

الجبل وأسطول جَنَوي، إنتزع ريمون من بني عمار مدينة جبيل، بيبلوس القديمة. «ومع طرطوس في الشمال وجبيل في الجنوب فإن كونتية طرابلس المقبلة كان قد رسم إطارها. ولم يكن ينقصه في الوسط إلا عاصمته الطبيعية، أي طرابلس نفسها. وكما سبق وقلنا فإن طرابلس العربية في القرن الحادي عشر كانت محصورة في المينا وهي شبه جزيرة صخرية يحميها برزخ ضيق مما يجعل إحتلالها صعباً... إن بني عمار، الذين كانت تصلهم المؤن بحراً من الأسطول المصري ويتصلون هكذا مع سائر العالم الإسلامي، كانوا يراهنون على يأس عدوهم». (١٢)

لكن ريمون، وتأكيداً لإرادته الثابتة، إتخذ مقراً على بعد بضعة أميال شرق المدينة وأحكم حصار طرابلس براً وبنى العام ١١٠٣ على نتوء صخري يشرف على مضيق فجوة النهر، قلعة سماها جبل الحجاج (ويسميها المسلمون قلعة سان جيل) وهي قلعة طرابلس الصليبية الحالية. وحول هذه القلعة قامت مدينة طرابلس الحديثة لاحقاً. وقد توفي سان جيل في عش النسر هذا العام ١١٠٤ من غير أن يتمتع بدخول المدينة التي طالما تمنى السيطرة عليها.

إن خلفه، وهو إبن عمه غليوم جوردان (١١٠٥ ـ ١١٠٩)، فقد إستمر في حصار المدينة. وأما أهل طرابلس، وبعدما ناشدوا عبثاً عون سلاجقة دمشق لهم، تحولوا العام ١١٠٨ إلى تأييد مصر. وفي العام ١١٠٩ إستولى غليوم على عرقا وهي موقع هام شمال شرق طرابلس وعلى جبل عكار المجاور لها. وفي تلك السنة نفسها توفي غليوم وخلفه إبن عمه برتراند الإبن البكر لسان جيل القادم حديثاً من فرنسا. وفي ذلك الوقت نفسه فإن طرابلس، المرهقة نتيجة الحصار، إستسلمت وإستقر برتراند فيها (١١٠٩).

«وهكذا تم تأسيس آخر دولة صليبية. وبرغم الشكوك، التي لابست تأسيسها منذ ولادتها، فقد كانت أقوى الدول الصليبية إذ في حين زالت مملكة أورشليم العام ١١٨٧ وإمارة أنطاكيا العام ١٢٦٨ فإن كونتية طرابلس إستمرت حتى العام ١٢٩١». (١٣)

12 Grousset.*L'Epopée des Croisades*, p. 75.
13 Grousset, *Histoire des Croisades, III, «Préface»*, p. XII.

٥ ـ توطيد الإحتلال الفرنجي

أ ـ وضع معقد في شمال سورية

وبعد ثلاث سنوات من أسره لدى الترك في آسيا الصغرى (١١٠١ ـ ١١٠٣) وحكم إبن عمه طنكريد في مكانه فإن بوهيموند أمير أنطاكيا، وبعد تحريره من الأسر، أعد العام ١١٠٤ حملة كبيرة إلى شرق الفرات في إتجاه الموصل. وبعدما هزمه أمراء الموصل وديار بكر الأتراك عاد بوهيموند إلى الغرب لطلب الإمدادات وتوفي في إيطاليا العام ١١١١. إن طنكريد، الذي حل محله كوصي طوال فترة غيابه (١١٠٤ ـ ١١١١)، خلفه كأمير إثر موته (١١١١ ـ ١١١٢).

أنعش طنكريد (١١١١ ـ ١١١٢) إمارة أنطاكيا. وبعدما أعاد تنظيم جيشها إستعاد من الأتراك السلاجقة المسيطرين على حلب الأراضي الواقعة شرق نهر العاصي (١١٠٥) ثم إستولى على أفاميا (١١٠٦) وإستعاد اللاذقية من البيزنطيين (١١٠٨). لكنه إختلف مع بغدوين دو بورج بارون قدس الذي تحالف مع الأمير التركي الجمالي في حربه ضد أمير حلب السلجوقي، رضوان. وطلب هذا الأخير مساعدة طنكريد (١١٠٨) ونشبت معركة على ضفاف الفرات بين المجموعتين المتنازعتين.

«وبدا المشهد يومها غريباً: مجموعة فرنجية ـ تركية تقاتل مجموعة فرنجية ـ تركية أخرى. . . وإذا كان هكذا وضع، بعد عشر سنوات من الحملة الصليبية الأولى، يثير الاستنكار في النفوس التقية، إلا إنه يكشف أن الاحقاد الدينية أو العرقية بين الاقطاعية الفرنجية والاقطاعية المسلمة فقدت الكثير من حدتها»[14].

ومن العام ١١١٠ إلى العام ١١١٥ سيّر سلطان فارس والعراق السلجوقي أربع حملات بهدف إلقاء الفرنجة في البحر. لكن الخلاف الذي شب بين الأتراك الإيرانيين والأتراك السوريين أفسد تلك الحملة المضادة التركية الإسلامية. إن تدخل السلطان الأكبر في سورية لم يكن يروق أتابكي حلب ودمشق اللذين، مخافة أن يفقدا إستقلالهما، لم يكونا ليترددا عند الضرورة من التعاطف مع الفرنجة ضد إخوانهما في العراق وإيران.

14 Grousset, *L'Epopée des Croisades*, p. 83-84.

وفي العام ١١١٣ قتل مودود، أتابك الموصل وقائد إحدى الحملات السلطانية، في مسجد دمشق الكبير بتحريض من أتابك تلك المدينة. وفي العام ١١١٥ فإن جيشاً سلطانياً آخر، وقد أسيء إستقباله في مختلف الدويلات السورية فتظاهر بالتراجع ثم أعاد الكرة على حين غرة فدمره أمير أنطاكيا شرق العاصي (١١١٥).

ب ـ ضم شرق الأردن إلى مملكة القدس (١١١٥ ـ ١١١٨)

ومن العام ١١١٥ إلى العام ١١١٨ إحتل بغدوين ملك القدس بلاد موآب (شرق الأردن) وبنى قصر مونتريال المحصن في الشونك على أكمة شمال مدينة البتراء القديمة (١١١٥). وفي العام ١١١٦ تقدم حتى البحر الأحمر وأسس في إيلات على خليج العقبة مركزاً عسكرياً. وقد أتاح هذا التوسع نحو الشرق لملك القدس الفرنجي كما أتاح لسلفه البعيد سليمان السيطرة على تجارة القوافل بين مصر ودمشق وبغداد وعلى طريق الحج إلى مكة المكرمة.

ج ـ الفرنجيون يصبحون مشارقة

وعلى الصعيد الداخلي فإن سياسة بغدوين لم تكن أوفر حظاً. فالفرنجة، الذين لم يكونوا يشكلون سوى طبقات أصحاب الوظائف في المملكة، تأقلموا مع البلاد واختلطوا بالسكان المحليين. إن المدن والأرياف الفلسطينية، التي خلت من سكانها المسلمين الذين هاجموا بأعداد كبيرة، فإنها عادت وأهلت بمسيحيين من السكان الأصليين الذين قدموا من سورية وشرق الأردن المسلمتين وسكنوا بيوتاً وأملاكاً غادرها أصحابها المسلمون. وهكذا فإن مملكة القدس الجديدة قامت على أساس مشاركة فرنجية-سورية، حيث العنصر الفرنجي يتأقلم يوماً بعد يوم مع الوسط الفلسطيني ويندمج بالسكان الأصليين. وإن هذا التطور الذي فرضته البيئة يؤكده بوضوح أحد مؤرخي ذلك العصر من الفرنجة، وهو فوشيه دو شارتر الكاهن الذي كان في صحب بغدوين الأول، حين قال: «أيها الغربيون ها قد تحولنا اليوم الى سكان شرقيين. فإيطالي أو فرنسي الأمس أصبح اليوم بعد انتقاله الى هنا جليلياً أو فلسطينياً. وإنسان ريمس أو شارتر تحول الى صوري أو مواطن أنطاكي. ها قد نسينا الآن مسقط رأسنا. وهنا بات واحدنا يمتلك بيتاً، وخدماً ويعيش مطمئناً، وكأنه ورثه عن جدود قدامى له في هذا البلد. والآخر تزوج إمرأة سورية أو أرمنية أو أحياناً مسلمة متنصرة وهو يعيش مع أسرة زوجته الذين

هم من السكان الأصليين. وها نحن نتكلم دورياً لغات البلد المختلفة. فالمستوطن بات من السكان الأصليين والمهاجر إندمج بالمواطن»[15].

د ـ تأسيس رهبانيتي المحبة وفرسان الهيكل (١١١٨)

بعد موت بغدوين الأول، الذي يعد المنظم الحقيقي لمملكة اورشليم، خلفه إبن عمه بغدوين الثاني (١١١٨ ـ ١١٣١) الذي كان حتى ذلك الحين كونت قدس. وفي أيام حكمه تم تأسيس رهبانية فرسان الهيكل في القدس وكان مقرها في هيكل سليمان (ومنه جاء إسمها) (١١١٨)، وحولت رهبانية المحبة، التي كانت حتى ذلك التاريخ جمعية خيرية، الى جيش من الرهبان ـ الفرسان المجندين للدفاع عن القبر المقدس. وهاتان المؤسستان زودتا مملكة القدس بالجيش النظامي الدائم الذي كانت تفتقر اليه.

هـ ـ توطيد الاحتلال الفرنجي

ومنذ تسلمه السلطة كان على بغدوين الثاني ان يتولى الوصاية على إمارة انطاكيا التي هزم أميرها روجيه (١١١٢ ـ ١١١٩)، خلف طنكريد، وقتل على طريق حلب وهو يحارب اتراك ديار بكر (١١١٩). ونجح بغدوين الثاني في صد تقدم الأعداء ووطد الموقف. ولكن وفي العام ١١٢٣ أسر هو نفسه على يد الترك وسجن في قلعة خربوط في ديار بكر. «ومع هذا كانت السيادة الفرنجية قد أضحت متأصلة الى حد أن هذا الحادث لم يؤد الى نتائج سيئة» (غروسيه). إذ، وخلال أسر بغدوين، فإن الوصي على القدس أفاد من وجود أسطول بندقي فإنتزع من المصريين ميناء صور (١١٢٤) فأمن هذا الفتح للفرنجة السيطرة الكاملة على البحر.

وأما بغدوين الثاني، وبعدما خرج من أسره (١١٢٤) وإستمر في تولي الوصاية على عرش أنطاكيا، فإنه أستأنف القتال ضد الترك. ولكن وفي العام ١١٢٥ فإن بورسوكي أتابك الموصل، والذي زادت قوته بعدما ضم حلب الى أراضيه، تحالف مع أتابك دمشق طغتكين. إلا أن بغدوين الثاني، يساعده كونت طرابلس وكونت قدس، نجح في التصدي لهذا التحالف. وبعدما وجّه جهوده ضد دمشق، أطلق بغدوين الثاني حملة ظافرة عبر حوران (١١٢٦). ولما كان له في قلب دمشق عملاء من فرقة الحشاشين الاسماعيلية فقد سلموه مدينة بانياس الحدودية الحصينة شمال شرق الجليل (١١٢٩).

15 Cité par Grousset, *L'Epopée des Croisades*, p. 100-101.

III. رد الفعل التركي ـ الاسلامي
تطور الشرق المسلم نحو الوحدة السياسية

١ ـ إرتقاء زنكي أتابك حلب والموصل الحكم (١١٢٩ ـ ١١٤٦)

حتى العام ١١٢٩ فإن خطر سورية المسلمة، الآخذة في التجزؤ، كان ما يزال ضئيلاً نسبياً على سورية الفرنجية. ولكن إنطلاقاً من هذا التاريخ برزت شخصية تركية قوية هو نور الدين زنكي (١١٢٩ ـ ١١٤٦)، أتابك حلب والموصل.

«إن إرتقاء الأتابك زنكي السلطة في حلب وحكمه على إمارة حلب ـ الموصل المزدوجة (١١٢٩ ـ ١١٤٦) يشكل في نظر المسلمين نقطة التحول في تاريخ الحروب الصليبية. فمن بعض النواحي يمكن تشبيه زنكي ببغدوين الأول اي مؤسس الملكية الإسلاميةبمؤسس الملكية الفرنجية. فهذا التركي الحازم كان مخلصاً في الجهاد الاسلامي مثلما كان بغدوين الأول مخلصاً في الحملة الصليبية إذ إن زنكياً أمضى حياته كلها في محاربة أعداء الدين تماماً كما فعل بغدوين. وهو، وأسوة ببغدوين الأول، سيستخدم الجهاد ويحققه لصالح ملكيته... إن خطته الأساسية تهدف الى توحيد سورية المسلمة... وهي نتيجة سياسية ما أن يتم الحصول عليها حتى تؤمن للمسلمين التفوق العسكري على المسيحيين»[1]. وأما من الجانب المقابل فإن مجمل سياسة ملوك القدس كانت تركز على منع تحقيق هذه الوحدة والمحافظة على التشرذم الإسلامي عن طريق حماية الدويلات المسلمة ـ السورية ضد مطامح السلالة الزنكية التي تبغي ضمها»[2].

1 Grousset, *L'Epopée des Croisades*, p. 137, 138, 139.
2 Grousset, *Les Croisades*, p. 43.

أ ـ الملك فولك حامي الاستقلال الدمشقي

وفي القدس فإن ملكها فولك دانجو (١١٣١ ـ ١١٤٣) صهر بغدوين الثاني وخلفه، وجد نفسه أمام وضع جديد. ففي وجه الملكية الفرنجية، التي كانت حتى ذلك التاريخ لا تواجه سوى فوضى إسلامية، قامت في سورية الداخلية ملكية مسلمة قوية بقيادة زنكي، أتابك حلب ـ الموصل. وكان هذا الأخير وفي العام ١١٣٠ قد ضم حماه الواقعة على العاصي وانتزع العام ١١٣٥ من إمارة انطاكيا مواقع عديدة شرق العاصي.

وفي العام ١١٣٧ نجح زنكي في أسر الملك فولك وكونت طرابلس. في الوقت نفسه، إن البيزنطيين، الذين لم يتخلوا يوماً عن حقوق سيادتهم على أنطاكيا، جاؤوا يحاصرون تلك المدينة التي إعترف الوصي عليها ريمون دو بواتييه بتابعيتها لهم. وبدعم من الجيش البيزنطي إستعاد ريمون من زنكي مواقع عدة بين أنطاكيا وحلب.

«ومن المؤكد أن التحالف الفرنجي ـ البيزنطي كان يفرض نفسه في وجه رد الفعل الإسلامي الذي كان يبدو أكثر فأكثر تهديداً. ومع الأسف فعندما كان يقر المعنيون بهذا المبدأ، فإن الريبة الغريزية بين اليونان واللاتين سرعان ما تفشل تطبيقه العملي»[3].

إن زنكي، الذي راهن على التنافس بين الفرنجة والبيزنطيين، عمد الى إطلاق سراح فولك وكونت طرابلس من غير فدية. فما لبث أن ظهر الخلاف من جديد بين الفرنجة والبيزنطيين. فاستاء الأمبراطور البيزنطي جان كومنينوس وسحب جيشه من إمارة أنطاكيا (١١٣٨).

وبعدما تخلص زنكي من الخطر البيزنطي سعى منذ العام ١١٣٨ الى ضم دولة دمشق التركية ـ السورية. وبعدما إحتل حمص (١١٣٨) وبعلبك (١١٣٩) تقدم بجيشه حتى دمشق وحاصرها (١١٣٩). لكن الملك فولك، الذي كان يتابع تحركات خصمه عن كثب، نصب نفسه مدافعاً عن إستقلال دمشق والوضع القائم في سورية. وبناء على طلب وجهه اليه الوصي على دمشق أرسل الى هذا الأخير وحدات من جيش الفرنجة. وما أن اقتربت حتى رفع زنكي الحصار المضروب على دمشق وإنسحب الى حلب (١١٤٠).

3 Grousset, *Les Croisades*, p. 44 - 45.

ب ـ الفرنجة يفقدون نهائياً القَدِس (١١٤٦)

وتوفي الملك فولك فخلفه إبنه بغدوين الثالث الذي كان قاصراً فتولت أمه ميليساند (١١٤٣ ـ ١١٥٢) الوصاية على العرش فأفاد زنكي من هذا الوضع وإستولى على قدس (١١٤٤).

وإثر موت زنكي (١١٤٦) كانت مملكته مقسومة بين ولديه غازي، الذي نال الموصل، ونور الدين، الذي نال حلب. وقد شجعت هذه التغييرات أرمن قدس على فتح أبواب المدينة لكونتهم السابق جوسلين الثاني الذي أعاد الحكم الفرنجي الى المدينة (١١٤٦). فهرع نور الدين من حلب وأعاد احتلال قدس (١١٤٦) التي بقيت نهائياً في أيدي المسلمين. وفي تلك السنة نفسها فإن موقع أرطاح المحصن شمال شرق العاصي إنتزع من أمير انطاكيا الذي رفض نجدة جوسلين.

إن نور الدين، الذي أوقف هو نفسه أعمال النهب والمذابح في قدس «لم يمارس ثأره إلا على اللاتين. وفي المقابل ورغبة منه في الحصول على إنضمام الأهالي المسيحيين إليه راعى جانب الاكليروس السرياني والاكليروس الأرمني. ووالاه العنصر السرياني بحسن نية: فهؤلاء المسيحيون الناطقون بالعربية يتكيفون بسهولة مع السيادة المسلمة التي تمنحهم عادة امتيازات»[4] وأما السكان الأرمن في المنطقة والمتورطون بقوة مع الفرنجة فقتلوا. والناجون، الذين إستطاع جزء منهم ان يهاجر مرة أخرى، إضطروا الى التحول الى التركية بإعتناق الإسلام (١١٤٦). «ولم يبق من الدول الفرنجية الأربع في الشرق سوى ثلاث. لقد نجح الثأر الإسلامي في إبعاد الفرنجة عن البلدان المتاخمة للجزيرة العربية نحو سورية بحد ذاتها. وحتى هنا كان يرجع إمارة أنطاكيا أكثر فأكثر الى غرب العاصي. وهكذا كان الشرق اللاتيني على تراجع في كل مكان»[5].

ج ـ الحملة الصليبية الثانية (١١٤٧)

إن فقدان قدس وتراجع الشرق اللاتيني الذي أعقب تلك الكارثة أثارا دعوة في الغرب الى حملة صليبية جديدة دعا اليها برنار دو كليرفو العام ١١٤٦. وهذه الحملة الصليبية الثانية لم تكن كالحملة الأولى نابعة من الحرارة

4 Grousset, *L'Epopée des Croisades*, p. 163-164.

5 Grousset, *Les Croisades*, p. 46.

الدينية ولا كانت صنيعة البابوية. فالوضع في أوروبا تغير ببطء خلال الأربعين عاماً الماضية. وإن المجتمع العلماني الذي تطور فيها أصبح أقل قبولا للأفكار الحماسية التي أدت الى حركة العام ١٠٩٥. ولكن خطورة الكارثة، من غير أن تحرك كثيراً الحمية الفاترة، حركت طموح رؤساء الدول الغربية. لذا، وبعد حملة البارونات الفرنجة، فإن الحملة الجديدة التي سيكون على رأسها كونراد الثالث الأمبراطور الجرماني ولويس السابع ملك فرنسا ستكون حملة ملوك (١١٤٧). إن هذه الحملة التي كان سيئة التنظيم والتوجيه ستؤدي، ككل التحالفات بين رؤساء مستقلين ومتحاسدين، الى إخفاق مطبق.

د ـ فشل الحملة الصليبية الثانية (١١٤٨ ـ ١١٤٩)

إن كونراد الثالث ولويس السابع، وقد سار كل منهما على حدة على رأس جيشه، بلغا العام ١١٤٧ القسطنطينية حيث وقعا في خلاف مع الأمبراطور البيزنطي. وأخذ كل منهما طريقاً مختلفة عن الأخرى لاجتياز آسيا الصغرى، حيث منيا بخسائر فادحة ولكنهما بلغا أورشليم العام (١١٤٨). وعوض توحيد جهودهما لمهاجمة الأتابك نور الدين في حلب، وكان أهم أعداء الفرنجة وأخطرهم، فإن لويس السابع وكونراد الثالث راحا يحاصران دمشق في الوقت الذي كانت فيه هذه المملكة حتى الأمس القريب حليفة الفرنجة ضد زنكي وكان بإمكانها ان تستمر حليفتهم أيضاً ضد إبنه نور الدين. وأخيراً فإن الخلاف بين بارونات الفرنجة في سورية الملقبين بالمهرة (جمع مهر) والصليبيين الجدد القادمين من أوروبا أدى الى رفع الحصار عن دمشق (١١٤٨). وعاد الملوك الصليبيون الى اوروبا وأما نور الدين، الذي هزم أمير أنطاكيا ريمون وقتله، فقد إستولى على جميع المواقع الصليبية الحصينة في ما وراء العاصي (١١٤٩). كما أجلا الفرنجة الشعب الأرمني من مواقعهم الحصينة في شمال شرق البلاد. «إن فشل الحملة الصليبية الثانية أدى الى تقهقر خطير في نفوذ الفرنجة في العالم الإسلامي فملك فرنسا وأمبراطور ألمانيا، أقوى أميرين في العالم المسيحي، جاءا وعادا من غير ان يفعلا شيئاً. وبرغم أنهما أرعبا إلى حين أتابك حلب نور الدين غير أنه عاد فإستأنف سير فتوحاته»[6].

٢ ـ تفكك الخلافة الفاطمية في القاهرة

وفي حين كانت سورية التركية ـ المسلمة تسير نحو الوحدة السياسية

6 Grousset, *L'Epopée des Croisades*, p. 172-173.

تحت إدارة الأتابك نور الدين الحازمة فإن خلافة فاطمي مصر، التي ضعفت وتزعزع نظامها نتيجة المآسي والمؤامرات المتكررة بلا إنقطاع، دخلت مرحلة انحطاط كامل.

أ ـ لمحة تاريخية (١٠٩٤ ـ ١١٥٣).

بعد موت طاغية مصر القوي بدر الجمالي العام ١٠٩٤ والخليفة المستنصر حل محل الأول إبنه أفضل وحل محل الثاني إبنه الصغير المستعلي (١٠٩٤ ـ ١١٠١). وأما نزار، الإبن البكر للخليفة والذي أقصي عن العرش بأمر من أفضل، فقد إلتجأ الى الاسكندرية ورشا واليها التركي أفتكين وأعلن نفسه خليفة. ورد أفضل بسرعة فحاصر الاسكندرية الى أن استسلم أفتكين ونزار لأفضل فأمر بقتلهما (١٠٩٥). لكن نزاراً، الذي لم ينفذ حكم الإعدام فيه علناً، فأصبح بالنسبة الى أنصاره وبخاصة الى فرقة الحشاشين المرهوبة إماماً مختفياً لا بد أن يعود يوماً الى الأرض. وكان حسن بن الصباح مؤسس هذه الفرقة وقائدها، المقيم منذ العام ١٠٩٠ في حصن الاموت شمال غرب قزوين، قد قدم العام ١٠٨٠ الى القاهرة حيث أقام علاقات مع الخليفة المستنصر وإبنه نزار. وقد ألقت إعتداءات أنصار الفرقة المصريين المعروفين بالنزاريين الهلع في أوساط الحكم الفاطمي الى حين.

في العام ١٠٩٧ و١٠٩٨ جرت في أنطاكيا المفاوضات بين الفاطميين والفرنجة وإنتزع المصريون مدينة القدس من يد الأتراك (١٠٩٨). وتلا هذه الأحداث إحتلال الصليبيين للقدس (١٠٩٩) وهزيمة الوزير أفضل في عسقلان (١٠٩٩) وأخيراً خسارة المصريين لحيفا وأرسوف وقيصرية (١١٠١) وعكا (١١٠٤) وطرابلس (١١٠٩)، وبيروت وصيدا (١١١٠)، التي إنتزعها الفرنجة. وفي العام ١١١١ كان المصريون، الذين إخذت تجارتهم ونشاطهم البحري في التدهور، عاجزين عن نجدة صور التي كانت تقاوم هجوماً فرنجياً، بفضل مساعدة سلاجقة دمشق لها، مما إضطرها الى إعلان تابعيتها لدمشق. وفي العام ١١٢٣ صُد جيش فاطمي شمال عسقلان وهزم الأسطول البندقي الأسطول المصري. وحدها عسقلان بقيت في كنف مصر.

وخلال هذا الوقت كان الوزير أفضل يحافظ على قوته. وعند وفاته (العام ١١١٨) عين الخليفة أمير مأموناً خلفاً له وهو رجل كان يتمتع بثقة الوزير الراحل الذي أقيل من منصبه العام ١١٢٥ وشنق بعد ذلك بثلاث سنوات ولم يُعين خلف له. حكم أمير مباشرة بمساعدة أحد الرهبان الأقباط وهو أبو نجدة

الذي أعدم العام ١١٢٩. وفي العام ١١٣٠ قضى الخليفة نفسه ضحية اعتداء عليه دبرته الفرقة النزارية.

«إن الأربعين سنة، التي مرت ما بين حكم المستعلي وحكم أمير وتوزير أفضل ومأمون، تركت إنطباعاً مشوشاً... فمن أسباب سقوط الفاطميين أيضاً أنهم لم يظهروا أبداً، أو على الأقل أبداً عزماً كافياً ضد الإفرنج»[٧].

وبدءاً من العام ١١٣٠ كان إنحطاط الفاطميين على إطراد حتى سقوط سلالتهم تماماً العام ١١٧١. وخلال تلك المرحلة، التي دامت أربعين سنة (١١٣٠ ـ ١١٧١)، فإن الخلفاء الفاطميين الأربعة الأواخر، الذين أصبحوا غير أكفياء وانعزلوا داخل الحريم، تخلوا عن صلاحياتهم لوزرائهم الذين منحوا أنفسهم، الى جانب السلطة المطلقة وتعزيزاً لهيبتهم، لقب ملك. «إنه أول لقب من نوعه في مصر. وتجدر الملاحظة الى أن صلاح الدين سوف يرثه كوزير فاطمي ثم ينقله الى خلفائه الذين اخذه عنهم المماليك»[٨]. وفي ظل الحكم المطلق الذي مارسه هؤلاء الوزراء ـ الملوك، العنيفون والطامعون الذين كانوا يتنازعون على السلطة، فإن مصر التي أدمتها نزاعاتهم المحمومة خارت وباتت عاجزة. ولن يلبث صلاح الدين، آخر هؤلاء الوزراء الطغاة، ان يزيل السلالة الفاطمية والخلافة الشيعية في القاهرة (١١٧٠).

ب ـ الفرنجة يستعيدون قوتهم (١١٥٣)

وفي العام ١١٥٣ أفاد ملك القدس بغدوين الثالث من الفوضى والعجز السائدين في مصر فإنتزع من الفاطميين مدينة عسقلان آخر مدينة مصرية حصينة على الساحل الفلسطيني والتي كانت قد قاومت طيلة نصف قرن جميع الهجمات الفرنجية. وبهذا النصر أصبح كل الساحل السوري ـ الفلسطيني من غزة وحتى إسكندرون خاضعاً لنفوذ الفرنجة الصليبيين. وفي الوقت نفسه فإن دمشق، التي أسعفها الصليبيون مرتين ضد أتابك حلب، غدت أشبه بمحمية فرنجية (١١٥٣). وأخيراً فإن فتح عسقلان وجّه الفرنجة نحو مصر «حيث ستقدم لهم الأحداث قريباً فرصة لم يكونوا يتوقعونها للتدخل. فلا خسارة ذلك الموقع وحاميته ولا هجوم صقلي على تينيس التي نهبت أحدثا أي تأثير في البلاط الفاطمي حيث كانت مآس أخرى تدبر»[٩].

7 Wiet, *op. cit.*, p. 268.
8 Wiet, *op. cit.*, p. 275-276.
9 Wiet, *op. cit.*, p. 285.

٣ ـ توحيد سورية المسلمة
إزالة خلافة القاهرة الفاطمية

أ ـ توحيد سورية المسلمة (١١٥٤)

كانت السيادة الفرنجية تبدو مستتبة في سورية عندما أقدم نور الدين أتابك حلب العام ١١٥٤ على ضم مملكة دمشق إلى دولته. فلقد تحققت أخيراً وحدة سورية المسلمة تحت إدارة قائد بارز يجمع في شخصه شجاعة المحارب وسمو الزاهد المتصوف. «وهكذا كانت ملكية فرنجية وملكية مسلمة، أي حملة صليبية وحملة مضادة لها، تقفان وجهاً إلى وجه». (غروسيه)

وبرغم بعض الإنتصارات الجانبية التي حققها بغدوين الثالث ضد نور الدين في بانياس (١١٥٧) وقرب بحيرة طبريا (١١٥٨) فإن الملك الفرنجي كان يعي تماماً الخطر الكبير الذي تمثله سورية المسلمة الموحدة منذ ١١٥٤ من جانب أتابك حلب بالنسبة إلى دولة سورية الفرنجية.

ب ـ تحالف فرنجي ـ بيزنطي (١١٥٨ ـ ١١٥٩)

إن توحيد سورية المسلمة دفع بالملك بغدوين إلى إستئناف سياسة التقارب مع الأمبراطورية البيزنطية «فقد أدرك الملك الشاب أنه لا بد من مصالحة كل المسيحيين لمواجهة الملكية الإسلامية الجديدة بشكل فعال. وأما الآن، وقد حققت سورية المسلمة وحدتها المرهوبة، فأصبح من الضروري مواجهتها بوحدة وثيقة بين سورية الفرنجية والأمبراطورية البيزنطية. وهي نظرة عبقرية كان يمكن أن تغير مجرى التاريخ»[10].

ومن أجل تحقيق هذا التحالف المسيحي الكبير طلب بغدوين الثالث يد أميرة بيزنطية للزواج ونال الموافقة على زواجه منها (١١٥٨). وإن الأمبراطور مانويل كومنينوس، الذي اعترف رينو دو شاتيون أمير أنطاكيا بتبعيته له، دخل دخولاً مهيباً إلى تلك المدينة (أنطاكيا) (١١٥٩). إن إمبراطور بيزنطية وملك القدس وأمير أنطاكيا جمعوا قواهم ومشوا لمحاربة أتابك حلب. وأمام مثل هذا التحالف فإن وضع نور الدين كان حرجاً جداً. ولكن وفي الوقت الذي إعتقد فيه الجميع بأنهم على وشك تدمير قوة أتابك حلب وأمبراطوريته إذا بالأمبراطور مانويل، الذي إكتفى بالإفراج عن الأسرى

10 Grousset, *L'Epopée des Croisades*, p. 185.

المسيحيين المحتجزين لدى الأتراك، يغادر سورية ويقفل عائداً إلى القسطنطينية (١١٥٩). «وفي الواقع، وبرغم العاطفة الشخصية التي كان يكنها أمبراطور القسطنطينية لملك القدس، إلا أن الدبلوماسية البيزنطية لم ترد توجيه ضربة قاضية للأتراك مخافة أن يؤدي ذلك إلى تعاظم القوة الفرنجية. فقد كانت مصممة على بناء هيمنتها بفضل الإبقاء على التوازن بين الفرنجة والمسلمين. إنها سياسة بارعة جداً لكنها لن تلبث أن ترتد على أصحابها. وسيدرك مانويل كومنينوس عندها أهمية التضامن الوثيق بين بيزنطية واللاتينية في وجه الخطر الإسلامي ولكن بعد فوات الأوان عندما يكون نور الدين قد ضم مصر. . . إن تلك الذهنية لن ينجم عنها خسارة الأرض المقدسة وحسب بل وسقوط القسطنطينية أيضاً أي في نهاية المطاف خسارة الأوروبيين ربع أوروبا».[11]

ج ـ تدخل تركي ـ سوري في مصر (١١٦٤)

وفي حوالي العصر الذي نحن فيه كان إنحطاط سلالة الفاطميين ونظامهم قد أصبح كاملاً إلى حد أن إحتلال مصر كان حلماً يراود مخيلة أسياد سورية المجاورة من فرنجة وأتراك معاً. وفي العام ١١٦٣ قام ملك القدس الجديد أموري الأول (١١٦٢ ـ ١١٧٤)، أخو بغدوين الثالث وخلفه، بشن حملة إستطلاعية مشى فيها حتى مدينة بلبيس في الدلتا من غير أن يواجه مقاومة تذكر. وأما نور الدين، الذي طلب منه التدخل في سياسة مصر الداخلية، فقد إغتنم هذه الفرصة لبسط سيادته على وادي النيل.

وفي العام ١١٦٤، فإن الوزير المصري شعوار الذي إنتزع منه منصبه منافس له أوفر حظاً هو ضرغام، إلتجأ إلى بلاط نور الدين وطلب مساعدته لإستعادة مهامه. وتطوع لأن يكون مساعداً له في مصر وأن يقدم له ثلث عائدات مصر المالية كحسم يقتطعه من رواتب الجنود. فاستجاب نور الدين إلى طلبه وسيّر نحو مصر جيشاً تركياً ـ سورياً على رأسه قائد تركي شهير يدعى شيركوه إصطحب معه إبن أخيه الشاب صلاح الدين. وهزم الوزير ضرغام تحت أسوار القاهرة وقتل. وعاد شعوار إلى منصبه كوزير (١١٦٤). وكان ضرغام «قد طلب مساعدة الفرنجة الذين لم يجدوا الوقت الكافي لاتخاذ قرار نظراً إلى تسارع الأحداث»[12]. إن شيركوه، الذي أعاد شعوار إلى منصبه كوزير، كان

11 Grousset, *L'Epopée des croisades*,p. 189.
12 Wiet, *op. cit.*, p. 294.

ينوي البقاء في مصر حيث راح، بفضل جيوشه، يتصرف وكأنه في بلد محتل. وللتخلص من وصاية شيركوه، فإن شعواراً، الذي كان قد التمس مساعدة نور الدين ضد ضرغام، لن يتردد الآن في طلب مساعدة الفرنجة لإنقاذه من رجل نور الدين. وقد ذهب إلى حد تقديم سلفة مالية إلى الملك أموري لتغطية نفقات الإعداد لهذه الحملة.

د ـ الأتراك والفرنجة يجلون عن مصر (١١٦٤ ـ ١١٦٧)

وهرع أموري إلى مصر وحاصر شيركوه في بلبيس بمساعدة المصريين. وإغتنم نور الدين غياب الجيش الفرنجي ليتنزع مدينة حارم الحصينة من يد إمارة أنطاكيا ومدينة بانياس من مملكة القدس (١١٦٤). وإثر تسوية فإن شيركوه وأموري أخليا معاً مصر في حين ظل الوزير شعوار وحده سيد البلد المطلق (١١٦٤).

إن حملة مصر العام ١١٦٤، وإن كانت معركة متعادلة بين الخصمين، لكنها كانت تعتبر نصراً للملك الفرنجي الذي منع نور الدين من ضم مصر إلى أمبراطوريته السورية. لذا ففي العام ١١٦٧ عاود أتابك حلب الكرة من جديد وعهد إلى شيركوه القيام بحملة جديدة تهدف صراحة إلى إحتلال وادي النيل. ومن جهته، إستنجد الوزير شعوار بأموري مجدداً آخذاً على عاتقه تكاليف الحملة. فهرع أموري إلى نجدته مقتفياً آثار شيركوه وإستقبل في مصر إستقبال المحررين. وإثر معركة غير حاسمة جرت في مصر العليا فإن شيركوه، وبمناورة بارعة، إنحدر نحو الشمال وإستولى على الإسكندرية التي أوكل الدفاع عنها إلى إبن أخيه صلاح الدين. وبعد أربعة أشهر من الحصار تعرضت الإسكندرية لمجاعة رهيبة وعرض شيركوه الصلح، حيث توصل الجانبان إلى إتفاق ينسحب بموجبه القائد التركي وملك الفرنجة للمرة الثانية من مصر معاً (١١٦٧). وبعد هذا الإتفاق حل صلاح الدين ضيفاً على أموري لبضعة أيام حتى أنه حصل من أموري على مراكب فرنجية لنقل جرحى جيش شيركوه إلى سورية.

«هذه المرة، وأكثر من المرة الماضية كان شيركوه شديد الأسف لتفويته فرصة إحتلال مصر بعدما أوشك على إحتلالها. وأما أموري، الذي حال دون ذلك، فقد عاد إلى القدس عودة المنتصر. فالملك البارع في مناورته لم ينقذ إستقلال مصر ويمنع توحيد العالم الإسلامي فقط بل أيضاً إن حكم القاهرة،

تقديراً منه لتدخله وضماناً لمساندته فيما بعد، وافق على أن تدفع له جزية سنوية مقدارها ١٠٠,٠٠٠ قطعة ذهب. وفي هذا الخريف من العام ١١٦٧ فإن حماية فرنجية حقيقية، مقبولة طوعاً بل ومطلوبة بإلحاح، قامت في مصر». (١٣)

هـ ـ التركي شيركوه يحتل مصر (١١٦٩)

ولسوء الحظ فإن نجاحات السياسة المصرية التي حققها الملك الفرنجي تعرضت للخطر نتيجة مشروع أخرق قلب الموقف رأساً على عقب. فأموري لم يكتفِ بفرض حمايته على مصر بل أراد إحتلال ذلك البلد مباشرة، وهذا الخطأ أعطى فرصة لخصمه نور الدين طالما إنتظرها طويلاً لضم مصر الفاطمية إلى ممتلكاته السورية.

وفي العام ١١٦٨ فإن أموري، الذي وطد العلاقات الفرنجية ـ البيزنطية بزواجه من الأميرة الأمبراطورية (١١٦٧)، إتفق مع الأمبراطور مانويل كومنينوس للقيام بحملة مشتركة على الدلتا. وبهفوة مميتة قرر القيام منفرداً بتلك الحملة من غير أن ينتظر معونة البيزنطيين له.

فغادر عسقلان ومشى رأساً إلى القاهرة التي قام المصريون الملتفون حول شعوار بإحراقها. ولما أيقن أموري من فشل خطته رضي بمغادرة مصر شرط أن تدفع له جزية حرب وافرة وعاد إلى فلسطين (١١٦٨).

وفي غضون ذلك فإن نور الدين، الذي كان يتابع عن كثب مراحل الصراع الفرنجي ـ المصري، كلف شيركوه العودة مجدداً إلى مصر. ولما وصل شيركوه إلى القاهرة عمد إلى قتل الوزير شعوار وحل محله (١١٦٩).

و ـ صلاح الدين وزير الخليفة الفاطمي وممثل الأتابك نور الدين (١١٦٩)

ولم يعش شيركوه سوى شهرين بعد نصره الكبير. وإثر موته (١١٦٩) خلفه إبن أخيه صلاح الدين كوزير إلى جانب الخليفة الفاطمي العاضد (١١٦٩).

«إن الوزير الجديد لم يكن له من العمر سوى ٣٢ عاماً. . . وفي يوم تعيينه بالذات أصدر مرسوماً منع بموجبه على أي مسيحي أن يشغل منصباً في

13 Grousset, *L'Epopée des Croisades*, p. 200-201.

الإدارة. وبما أنه لا يمكننا إتهام صلاح الدين بالتعصب، إذ وبرغم أنه قاد حرباً ضروساً ضد الصليبيين، فإن أحداثاً متفرقة تظهر بالأحرى مروءته، فأغلب الظن أن تلك الخطوة كانت تطهيراً موجهاً ضد الفاطميين ولكنه صورها للبلاد والموظفين المسلمين على أنها سياسة ضد المسيحية. وإن هذا التدبير كان من شأنه حث هؤلاء المسيحيين على التعقل وإرضاء الأوساط الإسلامية عموماً».[14]

إن صلاح الدين، الذي كان يعتزم الإحتفاظ بمصر لنفسه من غير أن يثير حفيظة رئيسه نور الدين، أمر بأن يذكر إسم نور الدين في خطبة يوم الجمعة بعد إسم الخليفة. وأما الحزب السلالي الفاطمي فإستاء من هذا التصرف الذي ينذر بنهاية العهد الفاطمي الوشيكة، فعمد إلى تدبير مؤامرة تطيح صلاح الدين. ونشبت معركة دامية بين قوات صلاح الدين ومرتزقة الخليفة الفاطمي الزنوج إنتهت بسقوط هؤلاء المرتزقة (١١٦٩) وبهذا توطدت قوة صلاح الدين فيما قوة الفاطميين تفارق الحياة.

«وهكذا فإن الحملة المشؤومة التي شنها الفرنجة العام ١١٦٨ لم تؤد إلا إلى كارثة دبلوماسية ذات نتائج وخيمة لا تحصى. فعوض الإكتفاء بمصر تابعة وفي كل الأحوال مسالمة ها إن مصر، باتت تحت سلطة قائد شاب يدل كل تاريخه اللاحق على نبوغه وعلى أنه رجل حرب ورجل دولة من الطراز الأول وأقوى شخصية على الإطلاق عرفها المجتمع في كل العهد الصليبي. وإن صلاح الدين، سيد مصر، سيظل يعتبر نفسه ممثلاً نور الدين فيها. وبهذا تكونت من جديد الوحدة الإسلامية من الفرات وحتى بلاد النوبة».[15]

ز ـ إلغاء الخلافة الفاطمية (١١٧١)

وأمام فداحة الخطر فإن أموري، الذي كان قد تزوج أميرة بيزنطية، إتجه ناحية بيزنطية إذ بدونها لن تلبث سورية الفرنجية أن ترمى في البحر. وبعدما حاصر عبثاً، وبمساعدة جيش بيزنطي مرفأ دمياط المصري (١١٦٩)، مضى ملك القدس إلى القسطنطينية حيث تباحث مع الأمبراطور مانويل كيفية القيام بحملة أفضل لإنتزاع مصر من صلاح الدين (١١٧١) لكنه توفي العام ١١٧٤ فيما كان يعد العدة لتنفيذ تلك الحملة.

14 Wiet, *op. cit.*, p. 299.
15 Grousset, *L'Epopée des Croisades*, p. 203, 204.

وفيما كان الأمبراطور مانويل والملك أموري يتشاوران في القسطنطينية قرر صلاح الدين، مع أنه كان يفضل أن يكون وزيراً قوياً لخليفة لا سلطة له، وذلك إرضاء لرئيسه نور الدين؛ إلغاء الخلافة الفاطمية في مصر. وفي العام ١١٧١ ألقيت الخطبة بإسم خليفة بغداد العباسي وأصبح صلاح الدين يحكم بإسم نور الدين. وأما الخليفة الفاطمي المخلوع فمات بعد أيام من ذلك من غير أن يترك خلفاً. وقد قابل الشعب المصري تلك الأحداث بلا مبالاة مطلقة.

«وهكذا لفظت هذه السلالة الفاطمية، التي أسسها منشق طموح قبل قرنين ونصف، أنفاسها بين يدي جندي كردي». وبإزالة خلافة القاهرة فإن صلاح الدين، الذي بات يحكم مصر بإسم نور الدين، وضع نهاية للإنشقاق السياسي ـ الديني الكبير الذي كان يقسم الإسلام وتحققت وحدة العالم الإسلامي السياسية والدينية في الشرق الأدنى.

لكن إزالة الخلافة الفاطمية «التي إنتزعت من الفرنجة قدرة الإفادة من الخصومات الطائفية في العالم الإسلامي كان لها نتيجة أخرى معاكسة لها. فصلاح الدين، بإزالته خلافة القاهرة، وجد نفسه في الواقع، إن لم يكن بالإسم، سيد مصر الوحيد وملكها الحقيقي. وقد بلغ درجة كبيرة جداً من القوة جعلته يطمح إلى الإستقلال التام. فالعلاقات بينه وبين نور الدين، الذي إستمر بمعاملته كمجرد ممثل له، سرعان ما ساءت. وإن إرتقاءه الصاعق سلم المجد بدأ يقض مضاجع الأتابك العجوز الذي راح يفكر جدياً بتوجيه حملة تأديبية ضد القائد المتمرد. ولما علم صلاح الدين بما يضمره راح يداري الآن الفرنجة... فمملكة القدس باتت في نظر سيد مصر الجديد دولة عازلة مناسبة تقيه شر نور الدين». [١٦]

ح ـ صلاح الدين سيد مصر الأوحد (١١٧٤)

وتوفي نور الدين وأموري العام ١١٧٤ تاركاً كل منهما ولداً قاصراً خلفاً له. لكن وفي حين ترك غياب الملك التركي المجال خالياً أمام صلاح الدين الذي سيعرف كيف يفيد منه، فإن موت أموري كان كارثة على الفرنجة. فملك القدس الجديد بغدوين الرابع (١١٧٤ ـ ١١٨٥) كان طفلاً في الثالثة عشرة وقد ورث دولة صغيرة «محاصرة بملكية عسكرية قوية يقودها صلاح

16 Grousset, *L'Epopée des Croisades*, p. 206.

الـدين القائـد الفذ». وهكـذا، وبفضل مـوت نور الـدين في الوقت المنـاسب، أصبح صلاح الـدين بين ليلة وضحاها السيـد المطلق على مصـائـر الشـرق المتوسطي.